مالك بدري

كلية الآداب - جامعة الخرطوم.

- المعهد العالمي للفكر الإسلامي - سلسلة المنهجية الإسلامية (2)، بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي، 1412هـ/ 1991م، ج3، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية التربوية، ص 331- 382، [52 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- مجال البحث (الكتاب): أسلمة علم النفس.

❑ ❑ ❑

أول ما يراه الباحث هو أن تاريخ علم النفس، رغم التاريخ العريق له، لم يبدأ كعلم إلا منذ 100 عام تقريباً، بل في الحقيقة فإنه لم يشهد تطوراً حقيقياً في مناهجه ومادته إلا خلال النصف الثاني من القرن الماضي.

ثم يعرج الباحث إلى الفراغ الذي أحدثته الثورة ضد الكنيسة الأوروبية وكيف استطاع علم النفس أن يملأ هذا الفراغ ليعطي الفرد تفسيراً مقبولاً للحياة ليساعده في حل مشاكله. ورغم أن بريقه -علم النفس- قد خف تدريجاً إلا أنه ظل مهيمناً على الفكر الغربي وبصماته واضحة في كل جوانب المعرفة المختلفة، حتى أن بعض العلماء (استشهد بهم الباحث) يعتبرون علم النفس علماً تجريبيا دقيقاً، وفلسفة إنسانية، وفناً رفيعاً .ومن هنا كانت جاذبية علم النفس للإنسان لأنه يبحث دائماً عمن يهتم بسلوكه ومشاكله.

❊ وبعد هذا الإستعراض يطرح الباحث السؤال الأساس في ورقته وهو:

لماذا أسلمة علم النفس؟

وللإجابة عنه يعدد الباحث ثلاثة تيارات مختلفة لمفهوم أسلمة علم النفس:

- أولها، التيار المتطرف الذي يرفض فكرة «علم نفس إسلامي» أساساً، فعلم النفس علم تجريبي لا مجال للأسلمة فيه.
- وثانيها، تيار متطرف مناقض للأول يرى أن علم النفس الحديث بكل فروعه وليد شرعي للحضارة الغربية اليهودية المسيحية، ولابد من علم

نفس إسلامي مستنبط من القرآن والسنة والتراث.

- وثالثها، تيار الوسط الصحيح الذي يعترف لعلم النفس العام وللتجريبي بأهميته وفوائده وإنجازاته العظيمة من ناحية، ولا ينس تأثير الخلفية الفلسفية الغربية على هذا الجانب العلمي من ناحية ثانية، وأن كثيراً من نظريات علم النفس المعاصر وتصوراته للإنسان المتوافق مع بيئته هي من تأثير الحضارة الغربية التي ازدهرت فيها هذه الدراسات من ناحية ثالثة.

* وبعد عرض هذه التيارات الثلاثة والتدليل عليها، بأمثلة من الكتاب أو الكتب في هذا المجال، يدعو الباحث علماء النفس المسلمين إلى التأصيل لهذا العلم: ليميزوا بين الخبيث والطيب في هذا الركام الواسع الذي أفرزه هذا العلم. ثم يدخل الباحث في تفصيل أكبر للتيارين المتطرفين (الأول والثاني في أعلاه) ليناقش الكثير من الآراء التي طرقت فيها ابتداءً بالرافضين لعلم النفس الغربي ثم الرافضين للأسلمة من المسلمين، حيث يصفنهم الباحث إلى طائفتين:

- طائفة رافضة للأسلمة من المؤمنين الملتزمين بالإسلام وهم الكثرة الغالبة.
- وطائفة نادرة ترفض التأصيل الإسلامي بسبب رفضهم الإسلام نفسه.

ثم يخلص الباحث في نهاية مناقشاته الطويلة إلى أن الدعوة إلى أسلمة علم النفس إنما هي دعوة موجهة أساساً إلى الغالبية العظمى من المؤمنين الملتزمين الرافضين لأسلمة على النفس بسبب تمسكهم بعلم النفس كتخصص درسوه وبرزوا فيه، أو لجهلهم بمعطيات التأصيل الإسلامي لعلم النفس.

* ثم يوجه الباحث مناقشته بعد ذلك إلى المحاولات التي جرت في الساحة الإسلامية لأسلمة علم النفس أو تأسيس علم نفس إسلامي جديد، ويرى أن أكثرهم من غير المختصين في علم النفس أو ممن سايروا موجة الأسلمة دون اقتناع حقيقي بها:

- فمن مجموعة الرافضين لعلم النفس الغربي كلية يناقش الباحث ما كتبه

الدكتور (حسن محمد الشرقاوي) في كتابه (نحو علم نفس إسلامي)، ثم الأستاذ (إبراهيم سرسيف) في كتابه (النفس الإنسانية في القرآن الكريم)، ومن نحى نحوهم، ويرى أن إسهاماتهم لا تفي بغرض الأسلمة الشاملة ولا تعدو - من خلال محدوديتها - أن تكون من الأماني الطيبة للأسلمة لا للتأصيل الشامل للعلم.

- وهناك مجموعة المسلمين المختصين بعلم النفس والمخلصين له الذين يواجهون صعوبات شتى في عملية الأسلمة لأنها تتطلب منه إعادة النظر في كثير من جوانب تخصصه والتخلي عن بعض مفاهيمه السابقة، ويعتبرهم الباحث ممن دخلوا (جحر ضبّ سيكولوجي) لا يستطيعون الانفكاك منه إذ مروا بمرحلة الإفتتان بهذا العلم. ويجد الباحث أن بعضهم يمر بالمرحلة التوفيقية بين الإسلام وعلم النفس بعد أن رأى التناقض بين الإسلام ودراساته النفسية المتعمقة. ومن المرحلة التوفيقية إلى (الإنعتاق) لبعضهم للخروج النهائي من جحر ضب علم النفس الغربي رغم مشقة ووعورة وصعوبة المرحلة التي عليه أن يقطعها من (التوفيق) إلى (الإنعتاق) .

* وبعد ذلك يرسم الباحث الطريق الذي يمكن أن يسلكه هؤلاء، أي علماء النفس المسلمين للوصول إلى مرحلة الإنعتاق، حيث يرى أن الإنعتاق لا يتم بالكامل ألا بعد أن يستشعر المختص أنه: مسلم مؤمن أولاً ثم متخصص نفسي ثانياً.

فمتى ما وصل المتخصص النفسي المسلم إلى هذه القناعة والعزيمة على بناء علم نفس إسلامي مطهر من شوائب ما يناقضه من فكر غربي، أهتم بعد ذلك بزيادة علمه بالدين، بعد أن يدرك تماماً أن علم النفس الغربي الذي درسه وتخصص فيه لا يملك الكلمة الأخيرة عن دراسة السلوك الإنساني. بل هو في بعض جوانبه تفسير حضاري محدد لهذا السلوك، حيث يضرب الباحث أمثلة على ذلك التجارب السوفيتية في علم النفس وكيف انساقت تماماً وفي جميعها إلى الفكر الماركسي اللينيني.

من ناحية أخرى فإن المسلم المتحرر من هيمنة علم النفس الغربي والذي يحرص على توضيح عيوبه وممارساته، يجب أن يحرص كذلك على الإستفادة من كل ما هو مفيد من علم النفس المعاصر. لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها فهو أحق الناس بها.

* ثم يستعرض الباحث وباختصار شديد أهم مبادئ الأسلمة، ليبدأ أولاً بأهم ركيزة من ركائز التأصيل الإسلامي وهو تأكيد رفض مادية تصورات علم النفس الغربي لطبيعة الإنسان وسلوكه واستبعاده للناحية الروحية وللإيمان بالله. وكل خلاف بين عالم النفس المسلم ومناهج علم النفس الغربي إنما هو فرع لهذه الركيزة الأساس.

* أما التصور الإسلامي الواضح فيأتي أساساً من نظرة الإسلام لطبيعة الإنسان الذي هو خيِّر بفطرته ولكنه مبتلى بامتلاك الإستعداد للتوجه نحو الخير أو الشر، وأن للبيئة التي يعيشها دوراً في دفع الإنسان نحو أحد الاتجاهين.

* ثم يستعرض الباحث إعتقاده للتصور الإسلامي ولنظرية الأسلمة التي يقعِّدها على قاعدتين عامتين هما:

1. كلما كانت المواد التي تؤخذ من علم النفس الغربي اكثر اعتماداً على البحث التجريبي الميداني فإنها تكون أكثر قبولاً واتساقاً مع الفكر الإسلامي، والعكس صحيح.
2. كلما كانت المواد النفسية الحديثة تدرس جانباً محدوداً من السلوك الإنساني (الإدراك الحسي، زمن الرجع، الذكاء... إلخ) كانت أكثر قبولاً من الناحية الإسلامية، ومتى ما اهتمت بالسلوك الإنساني العام ازدادت بعداً عنه.

* ثم يناقش الباحث مسألة التجريب والنتائج التجريبية وكيف تختلف النظريات والفلسفات المتباينة في تفسير نتائجها إلى حد التناقض أحياناً. ومن هنا يدعو الباحث العالم النفسي المسلم إلى الإفادة منها في بناء هيكلية نظرية متكاملة ذات طابع إسلامي.

وبالرغم من القاعدتين أعلاه، فإن الباحث يدعو إلى بعض التصرف فيها. فبعض النظريات النفسية الغربية العامة لا تناقض المبادئ الإسلامية في أكثر مقاصدها. من ناحية ثانية فإن التجربة ونتائجها لا يمكن قبولها دون قيود وشروط ولا يجب أن تأخذ منها إلا الأساليب والممارسات التي يقرها الإسلام.

ثم يأتي الباحث ليقترح على أقسام علم النفس في الجامعات الإسلامية التركيز على علم النفس التجريبي والقياس وعلم النفس الإحصائي والفيزيولوجي والوراثي والعصبي وسيكولوجية التعلم وبعض جوانب علم نفس الشواذ وغيرها من المواد والمقررات التي تقع تحت هذه المظلة.

أما ما يتعلق بالنظريات العامة للإنسان كعلم نفس الشخصية، والتحليل النفسي وعلم النفس الإنساني وعلم النفس الفلسفي وغيرها من المواد المشابهة فعلينا تدريسها بحذر مع إظهار الجوانب المنافية للإسلام في مفهومها.

ويخلص الباحث أخيراً إلى أن قيام علم نفس إسلامي الطابع لا يتم إلا إذا قام علماء النفس المخلصون بأبحاث تجريبية وميدانية مكثفة على طول العالم الإسلامي وعرضه بالطريقة التي تسمح في المستقبل للمنظِّرين النفسانيين المسلمين بوضع نظريات نفسية من أصول تجريبية وميدانية.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة :

تعريف علم النفس، تيارات متعددة لأسلمة علم النفس، محاولات أسلمة علم النفس، الطريق إلى الأسلمة أو التأصيل الإسلامي لعلم النفس، ما يقبل وما يرفض إسلامياً من علم النفس الغربي.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- صراحة الكاتب في نقده للتيارات والمحاولات المتعددة لأسلمة علم النفس لم تأت من فراغ، وإنما جاءت من خلفية متعمقة في علم النفس

الغربي أولاً، وفلسفة مشروع التأصيل الإسلامي لعلم النفس واتجاهاتها ثانياً.

- اتخاذ المسار الوسطي المعتدل بين القبول المطلق والرفض المطلق لعلم النفس الغربي انطلق من ذات الخلفية التي ذكرت في النقطة السالفة، ومن خبرته التعاملية في سوق الطروحات الإسلامية لأسلمة علم النفس.
- ولا شك فإن طروحاته للأسلمة أو للتأصيل الإسلامي واقعية من حيث التعامل، ولكنها لا زالت نظرية من حيث التأصيل وبناء التصور الإسلامي للإنسان ولوظيفته في الحياة، كما أشار الدكتور بدري في ثنايا ورقته. فنحن جميعاً - وهو من روادنا - لا زلنا نؤشر معالم الطريق ولكننا ما زلنا نبحث عنه.

❑ ❑ ❑